

**بيدل الدهلويّ، الميرزا عبد القادر، شاعر الفارسيّة الهنديّ، والممثل الأبرز للأسلوب الهنديّ**  
[أسلوبٌ سادَ منذ النصف الثاني من القرن العاشر الهجريّ (أواسط القرن السادس عشر الميلاديّ) حتّى أواخر القرن الثاني عشر الهجريّ، ولمّا كان معظم أنصار هذا الأسلوب يلازمون في ذلك الحين أباطرة الهند التيموريّين، سُمّي الأسلوب الهنديّ، وهو يقوم على تبيان الأفكار الدقيقة وإيراد المعاني الصعبة بلغة بسيطة متداولة عامّة]. وُلد بيدل في العام 1054هـ في عظيم آباد الهنديّة (حاليّاً: بننه\*). يعود نسب أجداده إلى قبيلة آرلاس، من المغول والأترّك الجغتائيّين، الذين كانوا يستوطنون بخارى (عبد الغني، ص 4-5). كان أبوه عبد الخالق من المتصوّفة القادريّين، عمل وهو شاب في سلك الجنديّة، لكنّه سرعان ما تخلّى عن هذا العمل، ودخل في خدمة العرفاء (م.ن، ص 6؛ هادي، ص 11). سَمّى ابنه "عبد القادر" تبرّكاً وتيمناً باسم عبد القادر الجيلانيّ، مرشد الطريقة القادريّة. فقد عبد القادر والدّه وهو لا يزال في الخامسة من عمره (عبد الغني، ص 13)، فتعهده بالرعاية عمّه الشاب الفاضل الميرزا قلندر (م.ن، ص.ن). كان عبد القادر يعرف فضلاً عن لغته الأمّ، اللّغة البنغاليّة ولغة باريجته (التي عُرفت في ما بعد باسم اللّغة الأردّيّة)، والسنسكريتيّة، والتركيّة، كما تعلّم في الكتاب اللّغتين العربيّة والفارسيّة. في السادسة من عمره قرأ القرآن الكريم وختّمه في أقلّ من سنة (م.ن، ص 14؛ الخليليّ، ص 80).

كان عبد القادر يعرض محاولاته الشعريّة الأولى على عمّه، أوّل مربّب ومشجّع له (عبد الغنيّ، ص 19-28؛ الخليليّ، ص 18-49). كان يوقّع أشعاره في أوّل الأمر باسم "رمزي" (الخليليّ، ص 23)، لكنّه غيرّه بعد ذلك إلى "بيدل" [المتيمّ]، متأثراً بالمعاني الرمزيّة للشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازيّ، مستنداً إلى المصراع "بيدل از بي نشان چه گوید باز" [ماذا يرّد العاشق المتيمّ عن الحبيب المجهول] (م.ن، ص.ن). يبدو أنّ بيدل نظم أشعاره الأولى وهو في العاشرة من عمره (بيدل الدهلويّ، 1964م/1383هـ، ص 116). كان فضلاً عن مصاحبة الأدباء والشعراء والعلماء، يقرأ أشعار كبار شعراء الفارسيّة أيضاً، وفي آثاره شواهد على معرفته العميقة بأشعارهم. كان في أوّل الأمر يميل إلى الأسلوبين الخراسانيّ والعراقيّ، لكنّ انتقاله إلى دلهي دفعه باتجاه الأسلوب الهنديّ (عبد الغنيّ، ص 48).

حين انتشر خبر مرض شاه جهان (حك: 1037-1068هـ)، واحتدم الصراع الداخليّ على السلطة، وصارت عظيم آباد أحد مراكز التمرد، كان الشاعر لا يزال في مطلع شبابه (م.ن، ص 28-33). فوضع الميرزا قلندر في هذه المرحلة على ما يبدو بيدل في عهدته خاله الميرزا ظريف، الذي كان من علماء الدين المحقّقين، وترك تأثيراً عميقاً في تكوين شخصيّة بيدل العرفانيّة والأدبيّة، وفي معرفته العميقة بالفلسفة وبالتصوّف العلميّ، وعلوم الكلام والفقه والحديث والتفسير (م.ن، ص 36-42).

في العام 1071هـ، رافق بيدل الميرزا ظريف إلى مركز أريسه، وهناك تعرّف الشاه قاسم هو اللهي، الذي كان متعمقاً في الأدب والحكمة والعرفان (م.ن، ص 38-39؛ الخليلي، ص 21-27). في العام 1075هـ، ذهب إلى دهلي، حيث دخل في خدمة العارف الكبير، الشاه كابلبي (عبد الغني، ص 46، 53). كان العارف الكبير الآخر في هذه المرحلة مولانا كمال البهاريّ القادريّ، الذي أصبح بيدل من مرّديه (الخليلي، ص 18-20). من أساتذة بيدل الآخرين الشاه فاضل أحد متصوّفة ذلك العصر البارزين، المحيّد لِفَنّي النظم والنثر (م.ن، ص 33-34). يسمّي بيدل في كتابه العناصر الأربعة الشاه قاسم هو اللهي، والشاه كابلبي، وشاه الملوك، والشاه يكه آزاد، والشيخ كمال البهاريّ، والشاه فاضل مرشديه المعنويين وأساتذته الروحانيين (م.ن، ص 18-47). في دهلي خدم بيدل في الجيش لإمرار معاشه (عبد الغني، ص 65)، لكنّ حين طلب إليه محمد أعظم شاه، ابن أورنغ زيب، أن ينظّم مدحيّة في عظمة شأنه ومنزلته، استقال من خدمة الدولة، وغادر العاصمة (م.ن، ص 66، 69، 73)، وساح لمدة طويلة في أكبر آباد ولاهور وحسن آباد، وشاه جهان آباد، ومُتْهرا (م.ن، ص 80-85).

وصف خوشغو (الدفتري 3، ص 111) بيدل بأنّه رجلٌ وسيم الطلعة، طويل القامة، وقويّ البنية. في المتناول أمودج من خطّ بيدل يدلّ على مهارته وإتقانه لفنّ الخطّ. كان الملوك وكبار الشخصيات يجلبونه ويحترمونّه (الخليلي، ص 78-79)؛ وقد مدحه أصحاب التراجم من معاصريه، من بينهم خوشغو (الدفتري 3، ص 115) الذي أشاد بعلمه وعرفانه.

كان بيدل دائم الاجتماع بمعاصريه من الشعراء والعلماء والعرفانيين (عبد الغني، ص 124-162).

في منتصف حياته، في 27 جمادى الثانية من العام 1096هـ، انتقل بيدل وعائلته إلى دهلي وأقام فيها (م.ن، ص 92). هنالك تعرّض لضائقة ماديّة دفعته إلى طلب المساعدة من الأمراء المحليين، فقدم له الحاكم التّوّاب شكر الله خان منزلاً، وعيّن له راتباً دائماً، ظلّ يتقاضاه إلى آخر عمره (م.ن، ص 93)، وإلى آخر عمره أيضاً بقي ساكناً في ذلك المنزل، وحين فارق الحياة في 4 صفر سنة 1133هـ، دُفن فيه بناءً على وصيّته (م.ن، ص 169). ظلّ ضريحُ بيدل مزاراً محبّيه مدةً طويلة، إلى أن لحقه الدمار في الاضطرابات التي حصلت في ما بعد، لا سيّما خلال الحملات العسكريّة التي شنّها نادر شاه والأفغان على مدينة دهلي، واليوم درّست آثاره، وموضعه غير معروف. يُنسب إليه ضريحٌ في أفغانستان، لا شكّ في أنّه مزيف (م.ن، ص 175).

لم يترك بيدل أولادًا بعده. يقول في العناصر الأربعة، إنه كان مطلعًا على هذا الأمر منذ مطلع الشباب، من خلال حالة كشف عرفانية. رُزق في أواخر عمره ولدًا، لم يعمر أكثر من أربع سنوات، وله في رثائه شعر مفعم بالشجن (بيدل الدهلوي، 1997م/1417هـ، مج 1، ص 220-221؛ الخليلي، ص 95-96؛ عبد الغني، ص 151).

بإمكاننا أن نلاحظ في آثار بيدل تأثير جميع شعراء الفارسية الكبار تقريبًا. كما خضع الشعر والنثر الفارسيان في شبه القارة الهندية وطاجيكستان وأفغانستان لتأثير بيدل وقد أثر نظمه ونثره في اللغة الأردية عن طريق تلامذته وأتباعه وخاصةً غالب الدهلوي\* (البوساني، ص 24-26؛ حسين، ص 327-340). يُقام سنويًا احتفالًا بذكرى وفاة بيدل في أفغانستان وطاجيكستان يُسمى "عرس بيدل"، وتُعقد جلسات "بيدل خواني" [قراءات من أشعار بيدل]، يُشارك فيها دارسو بيدل ومحبه. كما أن وفرة النسخ من آثار بيدل في هذين البلدين شاهدٌ على الحفاوة الشعبية العامة بأشعاره (شفيعي الكدكي، ص 81-111؛ عبد الغني، ص 171-174؛ حبيب، ص 295-307).

كان إقبال اللاهوري من المعجبين والمشيدين ببيدل الدهلوي، يُضَمّن أشعاره أحيانًا مصرعًا أو بيتًا كاملًا له (الرياض، ص 122)، وهو يؤكد من خلال المقارنة بين بيدل وغالب الدهلوي، أن غالبًا لم يهتم سوى بالصور الشعرية لدى بيدل، وعجز عن فهم أبعاد مضامين شعره. يُعدّ إقبال "بيدل" ثاني المفكرين الكبار في شبه القارة الهندية بعد شنكره تشاريا شارح الأوبانيشاد الشهير، وقد أوصى إقبال معاصريه من الشعراء أن يصبوا اهتمامهم على قراءة أشعار بيدل لإتقان لغتهم، وقد قارنه بهنري برغسون الفيلسوف الفرنسي المعاصر.

في إيران، بعد الثورة الإسلامية، اهتم جيل من الشعراء بآثار بيدل، وتأثروا به.

في آثار بيدل وفرة من المضامين العرفانية البعيدة الغور، والتشابه والاستعارات، والتعابير الجميلة والفنية. لقد منحته رقة التعبير، والمخيلة الواسعة، والقدرة على التشبيه والتمثيل - التي تصل أحيانًا إلى درجة الغلو - مكانة رفيعة بين شعراء الأسلوب الهندي، لا سيما وأن إكثاره من استخدام الرموز - أكثرها استخدامًا "آينه" [المرآة] - منح آثاره طابعًا مميزًا. دفعت هذه التجديدات أصحاب التذاكر بشكل عام إلى عدّه مبتكر أسلوب جديد خاص به (الخليلي، ص 63-92).

لدى بيدل رؤى وأفكار رفيعة المستوى، عميقة الغور، ومتعالية. فهو، من ضمن عدد محدود من الشعراء، استطاع أن يعرض من خلال تعابيره الشعرية الرائعة والبديعة أفكاره الفلسفية، وتجاربه العرفانية. لقد سُمّي الشاعر الفيلسوف (شفيعي الكدكي، ص 84)، ومرّد هذا الأمر أولًا وآخرًا رؤية

الشاعر الخاصة إلى الوجود والحياة. فيبدل عارف مؤمن بوحدة الوجود، ويظهر في أشعاره بوضوح التقاربُ بينه وبين العارف المسلم الكبير محيي الدين ابن عربي\*.

ليس في أشعار بيدل أيُّ أثرٍ للشكِّ الفلسفيِّ، إنّما فيها ما يمكن أن يوحى بأنّ الشاعر كان مصابًا بالشكِّ الفلسفيِّ، فالخيرة العرفانية في أشعاره تختلف ذاتًا وماهيةً عن الخيرة العقلية. فالكون والبشر مظاهرُ الحقِّ في نظره، والحضرةُ الأحديّة تطلعُ بجلالها وجمالها وتتجلّى في هذه المرايا. في هذا السياق، يُعطي بيدل تبعًا للعرفاء الآخرين الكبار قيمةً كبيرةً للإنسان نسبةً إلى الحقِّ تعالى. يتوسّع بيدل في غزلياته معنًى ومبنى، فإتساع مضامينه بادٍ للعيان، أمّا فهمُ لغته فيحتاج إلى معرفة الرموز والاستعارات الخاصة التي استخدمها. في القصائد يقترب أسلوب بيدل من أسلوب الخاقاني الشرواني\*، ولا يمدح سوى النبيِّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم، والإمام عليّ عليه السلام. يتطرّق في أشعاره إلى التوحيد والوجود والإنسان. ما يميّز شعره الغزليّ من غزليات شعراء الأسلوب الهنديِّ الكبار، المنحى التوحيديّ والعرفانيّ في أشعاره.

آثاره. خلّف بيدل الكثير من الآثار شعراً ونثراً؛ وقد طبعت مرّاتٍ عديدةً في الهند والباكستان وإيران وطاجيكستان. طبعت كُلِّيَّات بيدل [مجموعة آثاره]، بين العامين 1962 و1965م/1381 و1384هـ في كابول في ثلاثة مجلّدات للشعر، ومجلّد واحد للنثر. صدرت الطبعة الجديدة لآثاره في طهران في العام 1997م/1417هـ بإشراف أكبر بهداروند وبرويز عباسي الداكانيّ في ثلاثة مجلّدات.

أولى منظومات بيدل العرفانية، مثنوي المحيط الأعظم الذي أمّاه بيدل في العام 1078هـ. لهذه المنظومة مقدّمةٌ نثريةٌ، يشير فيها بيدل كنايةً إلى عدد كبير من الشعراء المعاصرين له. يتوجّب تصنيف المحيط الأعظم ضمن الخمريات [ساقى نامة] العرفانية. وهي تتألّف من ثمانية أدوار، تشرح تكوّن عالم الوجود؛ ويبدو فيها واضحاً تأثّرُ بيدل بفصوص الحكم\* لابن عربيّ. يرى بيدل إلى الوجود خمّارةً، الساقى فيها هو الحقُّ، والإنسان هو الثمّل الأبديّ والأزليّ. هذا السكر، هو سكر العشق والمعرفة، ودليل على الارتباط السرمديّ بين الله والإنسان. طُبِع مثنوي المحيط الأعظم عدّة مرّات، إحداها طبعةٌ صدرت في العام 1991م/1411هـ في طهران.

من منظومات بيدل العرفانية المثنويّ الطويل طلّسم الخيرة، الذي نظمه في العام 1080هـ. يجب عدّ هذه المنظومة تنقيباً باطنياً وعرفانياً في داخل الإنسان. لعلم الإناسة لدى بيدل لا سيّما في هذا الأثر تجلٌّ خاصّ. فهو بعد الأبحاث التمهيدية في علم الوجود وعلم الكون، وجّه نظره إلى الإنسان. في مدوّنة الرحلة الروحانية هذه، كانت لبيدل جولةٌ في الجسم البشريّ.

طور المعرفة، مثنويٌ طويل آخر، نظمته بيدل في العام 1099هـ في النواحي المركزيّة من الهند. يُقال أنّه نظمته خلال يومين في أثناء سفره إلى جبل بيرات بصحبة التّوّاب شكر الله خان. يشاهد بيدل على نحوٍ رمزيٍّ-مثاليٍّ في الطبيعة التي يصوّرها ويصفها وصفًا ماورائيًا، الحقيقة الظاهرة المتجلية في المظاهر. منحتُ مشاهدة الطبيعة فكرَ بيدل العرفانيّ فرصةً التحليق نحو اللامكان. وصل بيدل في نهاية المثنويّ إلى فكرة التخلّي عن الإرادة والترغيب بالصمت والفناء، وقاده المسيرُ في الآفاق نحو السير الأنفسيّ، الذي يشكّل في جميع منظومات بيدل الفكرة المحوريّة والأساسيّة.

أهمُّ منظومات بيدل، مثنوي العرفان الذي نظمته في العام 1124هـ. يبدأ فيه بشرح العلاقة بين الله والإنسان على أساس العشق. وتبعًا للتقليد الذي ينتهجه العرفاء، يُرفق بيدل مواضعه بقصص خاصّة من وحي المناسبة، ويتطرّق إلى مراتب الوجود على أساس نظريّة العرفاء، ويسمّي كلّ فصل بحسب المناسبة، "الطور"، "والنقش" أو "الجهد". يشير بيدل في هذا المثنويّ أيضًا إلى القصص الهندوسيّة، كما يُلاحظ في آثاره بعض مسائل الكتابة القصصيّة المعاصرة، كسياليّة الذهن والزمان. بشكل عامّ، يمكن ملاحظة أفكار معظم العرفانيين الكبار في هذا المثنويّ، لكنّ لا شكّ في أنّ تأثير آراء محيي الدين ابن عربي وتعاليمه أقوى من تأثير غيره، لا سيّما نظريّاته حول وحدة الوجود.

حلّف بيدل آثارًا نثريّة كذلك. أهمّها كتاب العناصر الأربعة، وهو سيرة حياة بيدل بقلمه. استغرقت كتابة هذا الأثر من العام 1091 حتى العام 1106هـ. مزج نثره بالشعر، موردًا هنا وهناك شواهد من غزليّاته ورباعيّاته ومثنويّاته ومقطوعاته. يتضمّن كتاب العناصر الأربعة كما يدلّ اسمه إشاراتٍ إلى الماء والهواء والتراب والنار. يرى بيدل أنّ الإنسان هو حصيلة هذه العناصر الأربعة، لذا يعدّ كتابة سيرة حياة البشر شرحًا لهذه العناصر الأربعة. يشير بيدل في سيرته، بحسب المناسبة إلى المباحثات بينه وبين العلماء والمفكرين المسلمين وغير المسلمين، وهذا مهمّ للاطلاع على الأفكار في الهند. ينقل في هذا الكتاب أيضًا تجاربه العرفانيّة الخاصّة وتجارب أساتذته. تطغى على نثر بيدل في هذا الكتاب مسحةٌ شعريّة، تبدو إلى حدٍّ ما متكلّفة.

ليبدل أثرٌ نثريٌّ آخر هو كتاب النكات [اللّطائف، الملاحظات]، وهو في الحقيقة رسالته الاعتقاديّة، ويتضمّن آراءه وتعاليمه العرفانيّة الأصليّة. في هذا الكتاب، ككتاب العناصر الأربعة، اختلطت أشعار بيدل بنثره، لكنّ نثره هنا أكثرُ سلاسة. هذا الكتاب هو الأفضل لفهم آراء بيدل الفلسفيّة والعرفانيّة.

خلف بيدل أيضاً رسائل مشهورة باسم الرقعات موجهة إلى أصدقائه وإلى بعض الأمراء المحليين. تظهر فيها وبوضوح غلبة الجوانب العرفانية والأخلاقية والدينية. طبعت مجموعة مثنويات بيدل وآثاره النثرية في كليته في العام 1299هـ/1882م في بمباي.

المصادر والمراجع: محمد إقبال اللاهوري، مطالعة بيدل: فكر برگسان كى روشنى مين [دراسة بيدل في ضوء آراء برغسون]، ط. تحسين فراقى، لاهور 1995م؛ آلساندرو بوساني، "أسلوب أشعار بيدل وغالب الدهلوي"، ترجمه بالفارسية ضياء الدين الترابي، مجلة كيهان فرهنگي [كيهان الثقافية]، السنة 10، العدد 4 (تير 1372ش [تموز- يوليو 1993م])؛ عبد القادر بن عبد الخالق بيدل الدهلوي، چهار عنصر [العناصر الأربعة]، كابول 1343ش [1964م]؛ رضوان حسين، "الميرزا غالب ومذهب بيدل" في سى مقاله [ثلاثين مقالة]، كابول 1365هـ [1966م]؛ نفسه، كليات بيدل، ط. أكبر بهداروند وبرويز عباسي الداكاني، طهران 1376ش [1997م]؛ أسد الله حبيب، "التعريف ببيدل في الاتحاد السوفياتي" في سى مقاله [المقالات الثلاثون]، كابول 1345ش [1966م]؛ خليل الله الخليلي، فيض قدس، [كابول] 1334ش [1955م]؛ بندر بن داس خوشغو، سفينة خوشغو، الدفتر 3: تذكرة شعراى فارسى [تذكرة شعراء الفارسية]، ط. سيد شاه محمد عطاء الرحمان عطا الكاكوي، بننه 1378هـ/1959م؛ محمد رياض، اقبال لاهورى وديگر شعراى پارسى گوى [إقبال اللاهوري وسائر شعراء الفارسية]، كابول 1345ش [1966م]؛ محمد رضا شفيعي كدكني، شاعر آينه ها: بررسى سبك هندی وشعر بيدل [شاعر المرايا: دراسة الأسلوب الهندي وشعر بيدل]، طهران 1371ش [1992م]؛ عبد الغني، زندگى وآثار عبد القادر بيدل [حياة عبد القادر بيدل وآثاره]، ترجمه بالفارسية محمد مهدي آصف، كابول 1341ش [1962م]؛ نبي هادي، عبد القادر بيدل الدهلوي، ترجمه بالفارسية توفيق سبحاني، طهران 1376ش [1997م].

/برويز عباسي الداكاني/